مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 15، العدد 60-61 (شتاء 2004)، ص 59

هاني فحص*

أبو عمار في طهران
من سيرتي في سيرته

"درود برخميني سلام برعرفات"
(تحية للخميني سلام لعرفات)

سمعناها أول مرة في مطار طهران بعدما حطت الطائرة واستطاع من التقطوا الخبر أن يهرعوا إلى المطار لينضموا إلى كل العاملين فيه، ويزدحم المكان بالوجوه والأيدي والعيون والهتاف والدموع بحيث لم يبق من زجاج قاعة الاستقبال شيء على سلامته.. وأينما ذهبنا في طهران كنا نسمع هذا الهتاف صاعداً من القلب إلى القلب، ومن القلوب جميعها إلى التاريخ... ويحتدم الأمل في وجدان أبي عمار فيرد على بريجنسكي من هناك: "باي باي لمصالح أميركا في بلادنا"، بعدما كان بريجنسكي قال قبل أسابيع: "باي باي لمنظمة التحرير"، وكان قطع الطريق الأول في حرب النظام العراقي على إيران ليستكمل العائق في الاجتياح الإسرائيلي... وكان اليأس هو الأولى لولا أن المقاومة في لبنان أثبتت جدواها وامتدت عدواها إلى الأرض المحتلة فكانت الانتفاضة الأولى أم الثانية والثالثة والرابعة والألف إلى أن يستريح بر ويستراح من فاجر.

أمّا متى؟ فقد كان يحلو لأبي عمار أن يكون حكيماً يستمد حكمة من القرآن بواقعية خالية من الأوهام فيردد الآية الكريمة "إنهم يرونه بعيداً، ونراه قريباً". لا موعد مع فلسطين، لكن فلسطين هي الوعد مهما تعاظم الوعيد.. هذه المقدمة، وما يليها، تريد أن تتعامل مع الثوابت بصرف النظر عن تمظهراتها التاريخية وتعقيداتها، انطلاقاً من قناعة بأن الثوابت بمستوى القوانين.. وهي التي تحكم في النهاية أي علاقة وأي مسار وأي مآل لصراع المظلوم ضد الظالم.

كانت الثورة في إيران حارة وطازجة، عندما أتيح لي مرافقة أبي عمار في أول رحلة لأول زعيم عربي إلى طهران. بعد تحويل السفارة الصهيونية إلى سفارة فلسطينية، تم تغيير اسم الميدان الذي تقع فيه السفارة في وسط المدينة من "ميدان كاخ"، أي القصر، إلى ميدان فلسطين، وكذلك اسم الشارع الذي يمر به ابتداء من شارع الشهيد فاطمي (وزير خارجية مصدق)[1] شمالاً إلى قصر المرمر ومبنى مجلس

(*) رجل دين لبناني وكاتب متعدد الاهتمامات.
(1) اقتحم مكتبه معتوه اسمه شعبان بي منح، أي بلا عقل، جنده روزفلت مباشرة في الانقلاب على

الشورى ورئاسة الحكومة ومقر رئيس الجمهورية ورئيس مجلس القضاء الأعلى جنوباً، وأصبح اسمه شارع فلسطين، وهو يمر ببولفار إليزابيت سابقاً بولفار كشاورز، أي الفلاح، بعد الثورة مباشرة. والسفارة التي صارت سفارة فلسطين كانت منزلاً قديماً لأحد الصدور العظام (رؤساء الحكومة) في العهد القاجاري يدعى "قوام السلطنة". وكانت قبل تدشينها الفلسطيني مقراً للمكتب التجاري الإسرائيلي، الذي استخدم مدخلاً للتغلغل في إيران اقتصاداً وسياسة وثقافة وأمناً، وغطاء للعلاقات الدبلوماسية الكاملة التي كان إعلان إنشائها أوائل الستينيات سبباً مباشراً لقيام الإمام الخميني بالثورة، والمجزرة التي ارتكبت في قم (المدرسة الفيضية) واعتقال الإمام، الذي اعتبر ذلك خيانة من الشاه بناء على الدستور الإيراني وطالبه بالنزول عن العرش.

كان أوري لوبراني الذي يتقن الفارسية ويتخصص بالشؤون الشيعية، على رأس البعثة التجارية (الأمنية) الصهيونية، وكان معروفاً باسم رمزيّ (مسعود). اكتشف أبو عمار هذه المفارقة قبل نجاح الثورة بقليل وأخبرني بها – وكان مع مسعود جهاز استخبارات مختلط من عدة جنسيات، من إيران وإسرائيل وغيرهما، ولا يقل عديده الأساسي عن سبعين عضواً (كادراً). وقد بقي لوبراني مع جهازه في إيران لأيام بعد انتصار الثورة، واستطاع أبو عمار أن يرصد حركته في اليومين الأخيرين من عمر حكومة بختيار، واكتشف أنه بعد سقوطها توجه إلى الأهواز تمهيداً لترك إيران نهائياً. وكلفني أبو عمار الاتصال بالقيادة الإيرانية وتبليغها الأمر.. واستنفر أبو عمار امتداداته في الخليج ليراقب حركة لوبراني وطريق خروجه.. ولم يصل إلى نتيجة محددة وقتها... وكان لا بد من تعيين سفير للسفارة، وقبيل العودة بلّغ الإيرانيون أن هاني الحسن هو الذي تم اختياره لهذه المهمة. وكنت سمعت همساً من رفيقَي الرحلة، أبي مازن وحامد أبو ستة، عضوي اللجنة التنفيذية للمنظمة، يدور حولي. وكنت التقيتهما أول مرة في بداية الرحلة في دمشق، وكان الهمس بينهما أني قد أكون الشخص المناسب للسفارة. ودخلت معهما في نقاش طويل عن الأدوار المتنوعة التي لا بد من أن تتناسب مع المواقع المتعددة، وذكرت لهما، تمهيداً لصرفهما عن الفكرة التي كانت أقرب إلى المحبة والعاطفة منها إلى السياسة، أن حديثاً جرى مرة بين عدد من الشباب اللبنانيين المتعاونين مع حركة "فتح"، من موقع العضوية في التنظيم اللبناني الفتحاوي، أو موقع الصداقة أو التحالف أو التفاهم أو التأييد، عن ضرورة أن يتأسس تنظيم لبناني متعاون إلى أبعد الحدود لكنه متميز من الحركة تنظيمياً وبرنامجياً، لضرورة ألاّ يكون الاندماج استقالة من الشأن الوطني اللبناني، وكلفت شخصياً نقل هذه الأطروحة إلى القيادة نظراً إلى دقة المسألة. لم يواجه أبو عمار هذا التصور بالرفض، وألّف بالتفاهم مع أبي جهاد لجنة من المرحوم جواد أبو الشعر وصخر حبش

مصدق.

ومني للتعمق في البحث. وبعد أيام بادرني المرحوم جواد بالنصيحة وبشفافيته وواقعيته المعهودتين قائلاً: ما دام أن أي مجموعة لبنانية منضوية بنسبة أو بأُخرى تحت لواء حركة "فتح"، فإن جانبها من طرف سائر الأنظمة العربية يكون مأموناً لأن مرجعيتها محددة، فإذا ما كان هناك تنظيم منفصل مدعوم من "فتح"، فإن معنى ذلك أن الأمر سوف يتمدد إلى أقطار أُخرى عربية من دون أن تتحمل "فتح" مسؤولية عمله في أي قطر منها، وبذلك يصبح لحركة "فتح" تنظيم ذو شعب قومية تتعدى الإطار والسقف الفلسطينيين، وتدخل في توترات مع السلطات في هذه الأقطار من دون أن تكون "فتح" مسؤولة عنها، وإن كانت ظلها الذي يحتمي بها.

وهذه إشكالية معقدة لا تقوى حركة "فتح" على تحمل تبعاتها.. وعليه، فإن المسؤولية التنظيمية والسياسية لا بد من أن تبقى فتحاوية فلسطينية حصراً.. وإلاّ فالانفصال التام، وهو ذو تعقيدات لا تقل خطورة عن الاستقلالية في الإطار الواحد.. وسألت جواد عمن قال هذا الكلام، فأكد لي أنه كلام متفق عليه بين أبي عمار وأبي جهاد. أصغى أبو مازن وأبو ستة إلى كلامي الطويل وسألاني ما مناسبة هذه الرواية، فقلت إن العاطفة مهما قويت وتعمقت، لا يجوز أن تغير الثوابت الراسخة، لا على المستوى العام ولا على المستوى الفردي. وأكملت مخاطباً أبا مازن بأن دوري هو كقناة تواصل واتصال قبل نجاح الثورة، بينها وبين المقاومة الفلسطينية وحركة "فتح" تحديداً، والذي تم بناء على رغبة إيرانية مبنية على علاقات سابقة بدأت في باريس مع عز الدين القلق، وفي برلين مع عبد الله الإفرنجي، وأثمرت في بعض نواحيها توافد عدد محدود من كوادر الثورة الإيرانية (أبو شريف مسؤول عمليات الحرس الثوري لاحقاً، والدكتور عبد الله والسيد الموسوي، استشهدا في الحرب بين إيران والعراق لاحقاً... وغيرهم كثيرون) على لبنان وعلى الجنوب تحديداً ليتدربوا على السلاح، وليختار بعضهم الاستمرار لفترة أو لأُخرى، ثم يعودون إلى طهران.. هذا الدور كان مرتبطاً بضرورات لم تعد قائمة، ولم أكن متفهماً لقرار تعيين السيد هاني الحسن فحسب، بل كنت أيضاً متحمساً لاستبعادي، لأن المفترض أن أكون بعد نجاح الثورة في حالة من القرب البعيد أو البعد القريب، وهذا الأمر لم يفت المعنيين به مباشرة، أقصد أبا عمار وهاني الحسن. أمّا الإيرانيون فلم يكونوا في هذا الوارد قط، وخصوصاً أن وزارة الخارجية الأولى بعد الثورة كانت في يد كريم سنجابي، الآتي من الجبهة الوطنية (جبهة ملي إيران). ولم يكن لديّ قبل الثورة أدنى معرفة به وبالتيار الوطني عامة سوى لقاء عابر مع صادق طباطبائي في زيارة لي لخاله الإمام موسى الصدر، ولقاء أكثر من عابر، سنة 1973، مع صادق قطب زاده من حركة تحرير إيران[2]

(2) جرى اللقاء في فندق الفينر هاوس في بيروت، ثم بدأنا، بالتنسيق مع جلال الدين فارسي، باستقبال شخصيات أقرب إلى الإمام الخميني (الشيخ محمد علمي، السيد محتشمي، السيد

(نهضت آزادي إيران)، العضو الفاعل في الجبهة الوطنية، والذي كان صريحاً إلى حد التهور، واستأثر حديثه معي وقتاً كبيراً بنقده القاسي لرجال الدين، وأنه غير مرتاح إلى التعاون معهم، ولن يتعاون معهم في المستقبل. وكان ذلك كافياً لدى استحضاره لاحقاً لأتأكد من أن المسألة فيما يخص السفارة هي أقرب إلى تصوري.. إضافة إلى ذلك فإن المرجع الأعلى لوزارة الخارجية في حكومة بازركان، الأولى بعد الثورة، هو الدكتور إبراهيم يزدي من حركة تحرير إيران (لم يلبث بعد أسابيع قليلة أن أصبح وزيراً للخارجية بدلاً من سنجابي ليحل محله في منصب نائب رئيس الحكومة لشؤون الثورة المرحوم الدكتور مصطفى شمران قبل أن يصبح وزيراً للدفاع بعد اغتيال وزير الدفاع الأول الجنرال قرني).

وفي الأيام الأولى لوصولنا إلى طهران اكتشفت أن الطريق إلى قلب الدكتور يزدي أمامي في منتهى الضيق إن لم يكن مسدوداً، بسبب حساسيته المفرطة تجاه الموضوع الفلسطيني ومنظمة التحرير ورغبته العميقة والشديدة في أن تكون العلاقة بـ "فتح" وأبي عمار والمنظمة محصورة فيه، فلا تتعداه إلى قوى سياسية أُخرى، وبصورة خاصة فريق عمل الإمام الخميني، إضافة إلى حساسية واضحة وتوتر شديد من جانبه ضد جلال الدين فارسي وموقعه القوي في سياق العلاقة التاريخية بحركة "فتح" والتي كنت بوابته إليها وكانت الثقة به في هذا المجال عالية، وإن كان عاد بعد فترة إلى موقف سلبي حاد من أبي عمار عاتبه عليه كثيرون من أصدقائه.

إذاً، كانت علاقتي الحميمة بجلال الدين فارسي مصدر ارتياب من طرف حركة تحرير إيران. وقد تجلى هذا الارتياب بما حدث بعد لجوئي إلى إيران سنة 1980، وقبيل الحرب العراقية – الإيرانية بأيام، هرباً من الملاحقة الأمنية العراقية لي في لبنان، وبنصيحة من أبي عمار، حيث مكثت هناك خمسة أشهر كنت أنشط خلالها في عدة مجالات، لأفاجأ بعد أحد المؤتمرات بتحريف كلامي تحريفاً كاملاً في جريدة "إطلاعات" من دون معرفة رئيس مجلس إدارتها، صديقي القديم، السيد محمود دعائي. وقد نُشرت صورتي إلى جانب الكلام المحرف مع تعداد لمجموعة أوصاف سلبية لي، منها أني بعثي عراقي وعميل لصدام حسين، الأمر الذي أثار حفيظة مكتب الإمام والشيخ المنتظري والأصدقاء واقترحوا أن تحميني قوة من الشرطة. فرفضت ذلك، وكان الحل أن أقيم بإحدى قواعد الحرس في طهران مع السيد عباس دوز دوزاني الذي كان قائداً للحرس الثوري وقتها، واكتشفنا أن الدكتور يزدي كان وراء العملية وهو رئيس تحرير الجريدة... إلى جانب ذلك فإن الدكتور إبراهيم يزدي شأنه شأن بقية

حميد روحاني، وأمثالهم). وتكثفت الوفود واللقاءات مع الرئيس الراحل ياسر عرفات بعدما حملت رسالة تعزيته إلى الإمام الخميني بوفاة نجله التي كانت الشرارة الأعظم وحملت جواب الإمام إليه أواخر سنة 1977.

القيادات في حركة تحرير إيران، وإن كان أشد منهم، كان يجاهر بضيقه من حضور رجال الدين في سياق الثورة والدولة واحتمالات المستقبل. وقد همس في أذني كلاماً، لدى جلوسه إلى جانبي في طريق عودتنا بالطائرة من الأهواز إلى طهران برفقة أبي عمار، لم أفهمه تماماً لأني لا أجيد الإنكليزية ولا الفارسية وهو لا يجيد العربية. وعندما نقلت انطباعي عما قاله إلى السيد هاني الحسن، أكد لي أنه تكلم معه بكلام واضح عن رجال الدين، وأن مشكلة إيران المقبلة سوف تكون معهم، وحمّل الفلسطينيين مسؤولية استقواء رجال الدين، من خلال رحلة أبي عمار، بالجانب الفلسطيني. واستعمل تعبير "يور ملز"، أي ملائيوكم، مخاطباً هاني الحسن... إذاً، فقد أصبح هاني الحسن سفيراً لفلسطين في طهران، وقد استطاع خلال أسابيع أن يبني علاقاته بفريق الإمام الخميني الديني والمدني (رفسنجاني بصورة خاصة) بسرعة وبطريقة فيها كثير من الذكاء والبراغماتية الفلسطينية ذات الحدين. وكانت تجربة احتلال السفارة الأميركية اختباراً لهذين الحدين عندما يعملان معاً، ويرجح الجانب الذرائعي فيهما ولو قليلاً على الجانب المبدئي المسيطر على وعي فريق الإمام، والذي احتاج إلى مدة طويلة وخسائر كبيرة وصغيرة ليستطيع لاحقاً التوفيق النسبي بين المبدئية والذرائعية، أو بين التكتيك والاستراتيجيا.

وعلى طريقته في سياسة "النباريش"، أي تشغيل أكثر من قناة على نهر واحد، كان لدى أبي عمار رغبة في بقائي في طهران من دون حماسة شديدة. فطلب مني أن أبقى إلى جانب هاني الحسن. ولإدراكي حساسية موقعي كرجل دين شيعي، وتوقعي لتعقيدات آتية في سياق العلاقة الفلسطينية – الإيرانية، أي بين المنظمة ودولة الثورة، والتي كان لا بد من أن تختلف عن الماضي، وبناء على إشارات على درجة من الوضوح ظهرت أمامي من خلال ملاحظات إيرانية وملاحظات فلسطينية، تدل إلى حد ما على طابع التعقيدات المتوقعة، قررت ألاّ أقع في الالتباس الذي يجعلني فلسطينياً عند الإيرانيين وإيرانياً عند الفلسطينيين، فأخسر الطرفين معاً، وأن أتشبث بموقعي الوسطي مقلعاً عن دور الوسيط، من دون تنصل من وظيفتي عندما يقتضي الأمر، وهذا ما جرى لاحقاً... أي عدم التنصل في اللحظات الحرجة، من موقع القناة، فعاودت القيام بوظيفتي القديمة عدة مرات، ثم أدركت مدى صعوبتها عندما حملت إلى الإمام الخميني رغبة أبي عمار في التدخل للمصالحة بينه وبين السيد شريعتمداري، وكانت ردة فعل الإمام دهشة عبّر عنها بقوله إن في هذا العرض تبسيطاً شديداً للمسألة... لكن ذلك لم يمنع أن أعاود ذلك في لحظة دقيقة وفي أثناء وجود أبي عمار في تونس، بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان سنة 1982، وتدشين المقاومة في لبنان بدعم إيراني ملحوظ وتعاون فلسطيني ملحوظ، وبفعالية لافتة. فقد تلقى أبو عمار رسالة من الشيخ هاشمي رفسنجاني، رئيس مجلس النواب الإيراني وقتها، يلومه فيها على الخروج من

لبنان، ويتساءل عما إذا كان ذلك طلباً للسلامة بناء على رغبة أبي عمار والقيادة الفلسطينية في البقاء في مواقعهم (وفي الرسالة كلام عن جاذبية السجادة الحمراء). وردّ أبو عمار برسالة غاضبة، مؤكداً تقديره للمقاومة في لبنان والدور الإيراني فيها، ومذكراً الشيخ رفسنجاني بأن ما جرى لم يكن ليجري بهذه الكفاءة وهذه السرعة لولا أن المقاومين في الجنوب كانوا في أغلبيتهم الساحقة قد تدربوا على السلاح وشاركوا حركة "فتح" في مواقعها العسكرية... وردّ الشيخ رفسنجاني برسالة أكد فيها هذا الواقع التاريخي الموصوف... ولم تخل الرسائل المتبادلة من التعبير عن المودة العميقة. وكان دوري تقديم المشورة لأبي عمار بشأن ردوده، من أجل تدوير الزوايا، وهو مسلك مشهور عنده. لذلك لم يكن من الصعب أو المحرج أن ألفت نظره إلى ضرورة التطرية. وقد استجاب لملاحظاتي استجابة شبه كاملة، وأتاح لي أن أعيد صوغ الرسائل بشكل مختلف نوعاً ومضموناً. لقد كانت الحرب العراقية – الإيرانية سبباً في وضع حد لوظيفتي القناتية لمدة طويلة جداً، لتكون العودة إليها محدودة جداً. وكان ذلك متأتياً من التباس في المنظور الإيراني لموقف أبي عمار بالموقف العراقي، بعدما أصر أبو عمار، في أثناء رحلته السريعة والخطرة والمعقدة والمثيرة إلى طهران عبر موسكو، ثم أذربيجان فطهران، عن طريق البر، على الخروج من طهران بقرار إيراني بالمصالحة وإنهاء المعركة مُقراً بالعدوان العراقي، متخوفاً من نتائج الاستمرار. وقد قدم للوفد الإيراني المفاوض معه معلومات شبه دقيقة عن الأوضاع السياسية في إيران والتي تحتمل تفجيرات صغيرة وكبيرة تزيد في الإرباك الإيراني وتقلل فرص التوازن في المعركة، فضلاً عن الانتصار... وتطرق في كلامه إلى مسألة مجاهدي خلق ونياتهم، والوضع المعقد في كردستان الإيرانية وفي تبريز... وتكلم عن وضع الجيش الإيراني وضآلة ما تبقى منه تحت السلاح مع الشك في ولاء قياداته. إلى جانب ذلك فإن الحرس الثوري ما زال طري العود، في حين أن النظام العراقي مدعوم بموقف دولي لا يخفف ضغطه على إيران الدور المتذبذب للاتحاد السوفياتي، إضافة إلى مواقف واستعدادات عربية لدعم العراق الذي يملك جيشاً متكامل العدد والعدة على مركزية شديدة سوف تزيد تمركزاً عندما يشرع النظام العراقي في استخدام أجهزته الأمنية والإعلامية مع الإعلام العربي لرفع درجة التوتر القومي والمذهبي في العراق وخارجه في مواجهة إيران. وأبدى أبو عمار تخوفه من أن يؤدي طول أمد المعركة إلى إشغال إيران نهائياً عن الشأن الفلسطيني فيمنعها من تحقيق ما شرعت في تحقيقه فعلاً من تعويض غياب مصر بعد كامب ديفيد التي كانت إحدى محطات الإعاقة، إضافة إلى الاحتلال السوفياتي لأفغانستان كمحطات حصار لإيران معضود بالحصار الذي فرضته أميركا عليها في كل شيء... وهنا رد السيد أحمد الخميني على أبي عمار بالموافقة على كثير من جوانب مطالعته للحالة الإيرانية، لكنه تساءل عما إذا كان في إمكان إيران أن

تتنازل تحت الضغط العراقي، مرجحاً السلب وأن من أهم النتائج التي ستترتب على ذلك أن يتحول الضعف في المعطيات الإيرانية إلى ضعف بنيوي... إلى هزيمة لا قيام منها... وهذا يعني أن الأوضاع الصعبة مع الحرب من الممكن أن تتحول عبر الاستنفار الوطني الشامل إلى مناسبة لبناء كل شيء في إيران، ما عدا العمران الذي سوف يصيبه الخراب، والاقتصاد الذي سيكون اقتصاد حرب لا اقتصاد تنمية كما وعدت الثورة... لكن الصمود الإيراني والإمكانات الإيرانية ستكون ضمانة نهوض لاحق على قاعدة الاستقلال والسيادة الراسخة وبناء الدولة التي يهددها التنازل أكثر مما تهددها الحرب، وإنْ كانت غير متكافئة في البداية.

وأعطى السيد أحمد مثالاً هو عدم التوازن في عوامل القوة العسكرية والاقتصادية والدولية بين إسرائيل والمقاومة الفلسطينية، لكن ذلك لم يمنع هذه المقاومة من أن تستمر، وأن تطرح قضيتها على العالم... بقي كلا الطرفين على رأيه. فأضيف تعقيد جديد إلى العلاقة، وكان الضغط العربي على ياسر عرفات من أهم أسبابه... وقد روى لي أنه في القمة التي عقدت بعد الحرب في المغرب، أو في تونس (لا أتذكر)، تعامل مسؤول عربي من قطر، كان أكثر الأقطار العربية تضرراً من النظام العراقي، بقساوة مع أبي عمار بسبب الود المستمر بينه وبين إيران. واستخدم هذا المسؤول لغة مذهبية في محاولة لِـــ "التنمير" على أبي عمار والتحريض عليه عندما قال له مستنكراً: لقد أدمنت الصلاة مأموماً بالإمام الخميني... وكان أبو عمار عبر علاقاته بأصدقائه من الإيرانيين من ذوي الحرص على التفاهم والوضوح، استدعى مجموعة من أهل المعرفة والسياسة من الإيرانيين إلى القمة لتكون على كثب مما يجري، وتتولى توضيح بعض الغوامض... وكان سبق قبل اندلاع الحرب، وعلى بوابتها وصدور بعض الإشارات من خلال المناوشات التي سبقتها، أن أرسل المرحوم سعد صايل والسيد هاني الحسن في محاولة لتفادي الحرب... وكان الرجلان جادين في عملهما وعلى يقين، لم يخفياه، من أن صدام حسين لم يقم بانقلابه على البكر وإلغاء الميثاق القومي مع دمشق إلاّ من أجل شن هذه الحرب... وفي أثناء القيام بالمهمة بدأت الحرب، فحزم الرجلان حقائبهما وعادا إلى بيروت بعدما شاهدا طائرات الميغ تقصف مطار مهر آباد في طهران وتمر في طريق عودتها فوق سفارة فلسطين... وفي الليالي الأولى للحرب سمعت كلاماً كثيراً عن النقص في الجهاز الطبي الإيراني، فتواصلت مع أبي عمار في بيروت لأخذ نصيحته في المساعدة وتواصلت مع الأستاذ طلال سلمان من أجل إنجازها. ولم ننجزها، لأن الإيرانيين استنفروا وضعهم الطبي وسدوا كثيراً من الثغرات... وأذكر أننا في ليلة من ليالي الجمعة (العطلة الرسمية)، وفي الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين مساء، حاولنا الاتصال بالرئيس أبو الحسن بني صدر لنخبره بما وصلنا إليه في مساعينا فوجدناه نائماً!!

* * *

عوداً إلى ما قبل ثم إلى البدء... أذكر أنه بلغ بي الارتياب بالنظام العراقي أشده بعد الأيام الأولى لنجاح الثورة الإيرانية، عندما جمعتني مناسبة بعدد من قيادات حزب البعث العراقي في لبنان، أي التي تشبه القيادات كما اتضح في كثير من المناسبات، حالها في ذلك حال القيادتين القطرية والقومية في بغداد. ودار الحديث بيننا عن إيران فقلت ناصحاً ببراءة غير سياسية إن قيادة الإمام الخميني للثورة والدولة تمثل صمام أمان وضمانة دينية وأخلاقية وسياسية لعلاقات إيران بالعراق في المستقبل، ويحسن أن نغتنم هذه الفرصة. فردوا عليّ بصوت واحد، أو بصوت الواحد، أو صدى صوت الواحد، بأن حزبهم حزب علماني (أي والله)، وهو لا يثق بأي قيادة دينية، لأنها رجعية ومتخلفة، وأنهم يفضلون مجاهدي خلق على تيار الإمام الخميني وفريقه من المدنيين والدينيين، وأن الخميني ليس ثابتاً في مستقبل إيران، ودور العراق أن يعجل في نهايته ليؤول الزمام إلى القوى الثورية... وكنت استشرت أبا عمار في هذه المبادرة فنصح لي القيام بها... وعندما بلّغته النتيجة طلب مني تبليغ الإيرانيين ذلك لأنه قد يكون مقدمة لأمر ما... وعندما انقلب صدام على البكر قال لي أبو عمار: بدأ المشوار!

في سفرنا الأول قدرت أن أبا عمار فوجئ وهو يراني أصعد سلم الطائرة الأميرية الإماراتية في طريق العودة وقال: ها أنت عائد؟ على ماذا اتفقنا؟ قلت لا بد من التفكير. وهمس السيد محمود عباس في أذني كلاماً فضحكنا... فالتفت أبو عمار قائلاً: أنت تعمل برأي أم حسن أكثر مما تعمل برأيي؟ فقلت له إن ناظم حكمت يقول: وطني حيث تكون زوجتي، وأنت زوجتك فلسطين ولذا فإنك لن تستقر إلاّ معها وفيها. وحدثت الجميع بما جرى عندما ذهبنا إلى "نوفل لو شاتو" قرب باريس، في أيلول/سبتمبر 1978 ناقلين إلى الإمام وفريق مستشاريه تصورنا واستعدادنا لإقامته بلبنان إذا لم تجدد له فرنسا سمة البقاء فيها، متوقعين أن يكون الانتصار أبعد من موعده الذي تحقق فيه بعد أشهر قليلة... وبعد يومين من المباحثة، أبدى الإمام ميلاً خفيفاً إلى القبول بالمشروع وقال: أيضاً عليّ استشارة... فتعجبنا وسألناه: ومن تستشير؟ فلم يتحرج من الجواب قائلاً: زوجتي! وعلق الجميع بأن هذه علامة مضيئة جداً.

كيف يمكن أن يكون رجل الدين حراً في السياسة ما دام التكتيك ضرورياً جداً؟ وفي حالتنا العربية يبقى التكتيك متقدماً أو مقدماً على الاستراتيجيا، إن كان هناك استراتيجيا، أو إلى أن تصبح هناك استراتيجيا قبل يوم القيامة ولو بلحظات!!!

وطرنا على طائرة المرحوم الرئيس الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان الخاصة، بعدما صرفت الطائرة السورية الخاصة، لا بسبب الفارق النوعي بين الطائرتين – إذ كانت طائرة الرئيس الأسد عادية، بينما طائرة الشيخ زايد تشعرك بأنك في قصر طائر،

يجمع إلى أحدث التجهيزات والمفروشـات من المنامات إلى المكاتب والحمامات، بيت الشعر الذي يشبه الشعر العربي، لولا أنه مصنوع من مادة أوروبية وبأيد أوروبية... غير أنه يشبهنا شكلاً والمضمون أمر آخر، لا بد من تأجيله وتأجيل البحث فيه حتى نرى إلام تنتهي العولمة – وإنما كان لا بد من صرف طائرة الرئيس الأسد وطاقمها نظراً إلى إصرار المرحوم الشيخ زايد على أن يمر به السيد عرفات عائداً من طهران ليضعه في صورة الوضع فيها، على خوف ورجاء معاً، تبيّناهما في إلحاح الوسيط الذي حضر على الطائرة وحيداً مع طاقمها، وهو ممثل منظمة التحرير في أبو ظبي السيد ربحي عوض. لفتني على الطائرة المزودة بكل أسباب الراحة والزينة أمر ضحكت منه في سري، ولم أبح به، ولو بحت به لتجنبت حرجاً لاحقاً، رأيت عناقيد من العنب الأبيض والأسود على أطباق فتساءلت في نفسي: وهل من داع للزينة بمواد بلاستيكية على طائرة أميركية؟

وفي اليوم التالي، كان السيد ياسر عرفات في جلسة خاصة في قصر البطين مع الشيخ زايد، وكنا ننتظره في أحد مكاتب القصر كي ندخل ونشارك في الجلسة الموسعة. وكنت على المائدة مع السيد محمود عباس والسيد أحمد خليفة السويدي، وزير الخارجية ومستشار الأمير لاحقاً، ومددت يدي إلى الطبق المماثل لأطباق الفواكه الصناعية على الطائرة، مزيداً عليها حبات من الخوخ الأحمر، ضغطت قليلاً على حبة الخوخ فانفجرت وسال منها ماء طبيعي، فبانت على وجهي علامات الاستغراب والدهشة، فابتسم الرجلان وداريت حرجي.. فواكه صيفية في عز الشتاء، أواخر شباط/فبراير!!! وعرفت لاحقاً أموراً ومفارقات سلوكية ومعيشية أصبحت معها هذه الحادثة وذلك المشهد العجيب أمراً في منتهى البساطة.

الموجع في الأمر أن السلوكيات الترفيهية الخيالية أو الأسطورية التي رأيتها أو سمعت عنها لاحقاً ممن رأوها، لم تكن تأتي من أهل الثراء الأصلي، وإنما من ثوريين آتين من الطبقة الكادحة، حاملين همومها وطموحها إلى العدل والتقدم. وهكذا أصبح من الصعب عليّ أن أستخدم اصطلاح الحقد الطبقي على فجاجته، لأني وجدت حالة كثيرين من الثوريين أقرب إلى الحسد الطبقي، أي تمني زوال (النعمة) الحلال أو الحرام، عن الآخر وحلولها في الرفيق الحسود!!!

انتقلنا إلى مكتب الشيخ زايد، وكنت لا أزال في مضطرَب الإلحاح على تفسير المفارقة في تفصيلات الجمع بين الماضي والحاضر في السلوك العربي، وفي قراءة المنحنى الطبقي في هذه التفصيلات، أي أني كنت آتياً، ولعلي لا أزال، من بساطة عيش وفكر تساوي بين الالتزام الثوري والفقر، أو تجعل الفقر من لوازم الالتزام، من دون توقف عند ما سمي الثورات الوطنية. وألح الماويون العرب في استنباط دروسه اللاطبقوية أو اللااقتصادوية في سبيلهم إلى الإدانة المنهجية للفكر الأورثوذكسي

الماركسي السوفياتي... إذاً، فما على الميسور أو الملي، كي يكون التزامه الثوري صحيحاً، إلاّ أن يسلك مسلك الفقراء... كما فعل كثيرون من كوادر الحزب الشيوعي ومنظمة العمل الشيوعي والتيار التروتسكي في لبنان، من طلاب الجامعتين اليسوعية والأميركية، ومن أعلى السلم في الطبقة البورجوازية اللبنانية، ومن الموارنة خاصة، في إبان المد اليساري الذي أتاح لأبناء الكادحين من برج حمود والدكوانة أن يمارسوا دور الأستاذية على الأسياد في إبان مراهقتهم، ريثما يعودون إلى أحضان أهلهم الناعمة بعد التخرج وضرورات الانسجام مع السياق العائلي... ليعودوا من بعد وقد رفلوا في نعمة الله، على غاية من اللطف والرهافة، يتذكرون الأيام الخوالي والرفاق الأوائل، كما يتذكر الولد الشقي ارتكابات الطفولة التي كان يحاول من خلالها أن يحقق ذاته بعيداً عن عناية الأهل التي تلتبس بالوصاية.

ولم أستوعب تماماً أن يكون الشيخ زايد بوجهه الذي تقرأ فيه تاريخ الصحراء وكثبانها وهجيرها وسواقيها وعاقولها (شوك) وحنظلها... وبقيافته التي لم يدخل عليها إلاّ تعديل طفيف في شكل ياقة الجلابية الصقيلة والمنشاة، وكوفيته وعقاله ونعاله، هو الجالس المطمئن في هذا المكتب المشتق شكلاً من أحدث تصاميم الحداثة الغربية، وعلى هذا المقعد الوثير الأبيض الناصع اللامع، والذي تخاف عليه من حبة عرق تتدحرج من جبينك الذي يتعرق لفرط الدهشة، وكأن مكيف الهواء معطل.. بينما هو يشعرك بعبثية الكلام عن التناقض بالجمع بين الشتاء والصيف تحت سقف واحد.. وها هما مجتمعان! واكتملت صورة المفارقة في ذهني عندما أخذ الشيخ زايد يتكلم عن الإمام الخميني كلاماً بسيطاً، عامياً خليجياً، ساعدتني عراقيتي المضافة على استحسانه، ومشوباً أو متخللاً بكلمات فصيحة في حدود الضرورة والإمكان، لا تتعب في تلمس صدقه وعفويته، إلاّ إذا كنت على سابق علم أو تجربة ببواطن الأمور ودهاء البداوة المتحضرة. كان الكلام ودوداً مطَمئناً ومطْمئناً على مسحة من خوف لا تخفى على الحصيف أو العارف بجذور القلق في هذه الكيانات العربية التي لا تزال تعالج عوارض التأسيس بذاكرة متقطعة وتحديث يبلغ الذروة شكلاً، ويبقى مضمونه عرضة للسؤال.

كانت طائرة الشيخ زايد قد توقفت يوماً كاملاً في مطار "مهر آباد" – معمورة المحبة – في طهران. وأصر السيد ربحي عوض على ضرورة تلبية الدعوة لطمأنة الشيخ زايد إلى توجهات القيادة الإيرانية المستقبلية، وخصوصاً أن بعض شركائه يظهرون سلبية وشكاً، ويحاولون أن يشككوه في الأمر... بعد اللقاء بدا كأن الشيخ اطمأن. في مطار طهران كان في وداعنا عدد من المسؤولين الإيرانيين، منهم إبراهيم يزدي والسيد محمود دعائي النائب منذ المجلس الأول، ورئيس مجلس إدارة جريدة "إطلاعات" منذ سنة 1980، والذي عُيّن كأول سفير لدى العراق بعد الثورة، وكان

مـأخوذاً في الاعتبـار عند تعيينـه أنـه كـان في أثنـاء نفي الإمـام في العراق أحد الـذين تولوا التنسـيق مع الدولـة العراقيـة، ولا سـيمـا في المجـال الإعلامـي، وهـذا مـا كـان علامـة علـى رغبـة القيـادة الإيرانيـة في طمـأنـة الـدولـة العراقيـة، وهـي علامـة التقطهـا الرئيس العراقـي أحمد حسن البكر وعبر عن ارتيـاحه إليها في لقـاء مع أبي عمار لاحقاً. وقد نقل أبو عمـار هـذا الجو لاحقـاً إلى الإيرانيين في حضــوري.. لكن التطورات التي حدثت في العراق بعد ذلك، من إلغاء الميثـاق القومي الذي عقده البكر مع الرئيس حـافظ الأسـد إلى إقـالـة الرئيس البكر وإعدام عشــرات القيـاديين من أصــدقـائـه وفريق عملـه والمؤيدين للميثـاق القومـي بـاعتبـاره مـدخلاً إلى علاقـات عراقيـة – إيرانيـة علـى نصــــاب عربي بضمـان سوري.. كل ذلك مهد لحرب عراقية – إيرانية كانت سبباً في كثير من الخيبـات والإحبـاطات. سـلّم السـيد ربحي عوض على الجميع بلهجة محلية فلسـطينية، وعندمـا وصـــل إليّ تعمد الفصــحى مع مـا تيســر من لكنة تقربهـا من الفـارســيـة، لغة أُخرى (التركيـة)، على أسـاس أني فـارسـي.. ضـحكنـا ومـا زلنـا نضـحك ممن يكسـر لغتـه العربيـة ويفسدهـا ليقترب خطأً من قلوب الإيرانيين، فينفرون منـه ويشـفقون على اللغـة العربيـة مكسـرة على لســان أهلهـا، وهم يعشـقونهـا سـليمـة مسـتقيمـة ويتبـارون فيهـا.. ويجعلون تعليمهـا وتعلمهـا مـادة ثـابتـة في الدســتور، لا يمكن تعديلهـا أو إلغـاؤهـا إلاّ بـاســتفتـاء شعبي عـام.. وهل يمكن للشعب أن يوافق على أمر ينصب حـاجزاً بينه وبين القرآن؟

وحطت الطـائرة في مطـار دبي، لأن الضـبـاب الكثيف كـان مـانعـاً لهـا من الهبوط في أبو ظبي ومـانعـاً أيضـاً من السفر براً إليهـا على الرغم من إصرار السيد عرفـات على ذلك.

أدهشتنـي أسمـاء الحوانيت ومرائب تعمير العربـات في شوارع دبي وأبو ظبي.. وهـي أسمـاء إيرانيـة مثل "فروشكـاه بندر عبـاس" و"بنشر شيراز". وعندمـا لاحظ أحد المسؤولين الإمــاراتيين دهشــتي، وكــان الرفــاق البــاقون يعرفون عن الخليج أكثر مني كثيراً، ويعرفون فيمـا يعرفون حجم الجوالي الإيرانيـة في مختلف الإمـارات حتى قطر والبحرين مروراً بـالكويت.. فقـال المســؤول: نحن لو أردنـا لمـا اســتطعنـا معـاداة الثورة ولا الدولـة، لأن مفـاصـــل حيـاتنـا اليوميـة هـي في أيدي الإيرانيين، من صــنــاعـة الخبز إلى بنـاء البيوت.. وأشـار إلى سـائقه الإيراني وقـال: الراديو في السـيـارة مفتوح دائمـاً على الإذاعة الإيرانيـة، وأكـاد أحفظ أنـاشــيد الثورة للتكرار من دون أن يكون لي أدنـى معرفـة بـاللغـة الفـارسيـة.

لم تســلّم جوازات الوفد إلى ســلطـات الأمن في مطـار دبي، فلم تعرف الأســمـاء المجهولـة مثل اسمي، فظن ضبـاط الأمن الإمـاراتيون أني إيراني، وهمس بعضـهم في أذن بعض بـأني قد أكون الســيد أحمد، نجل الإمـام الخميني، وأن الإمـام ربمـا يكون أرســلنـي لتطمين المســؤولين إلى مســتقبل العلاقـة، فـأحـاطوني بعنـايـة فـائقـة، دفعت ثمنهـا منعـاً لأحد من مقـابلتي ومن إيقـاظي صـــبـاحـاً لتنـاول الطعـام والتوجـه إلى المطـار... إلى أن

وصـل الوفد إلى المطار وافتقدني واتصـل بالفندق طالباً نقلي. فنقلني سـائق تكسـي هندي – المسكين – منّ نفسه بأجر وافر... لكني كنت خالي الوفاض من أي نقد، وفي عجلة من أمري، لأن الوفد أصبح في الطائرة التي كانت على أهبة التحرك.

وعندما ترجلت من السيارة لوحوا لي بأنْ عَجِّلْ، فنسيت أن أنبه أحداً من المودعين لنفحه أجرته، وولجت الطائرة وهو يقوم بحركات غاضبة... وللمناسبة لا أذكر أني عدت مرة من طهران ملياً... ويذكر لي الإيرانيون هذه المأثرة، وأحياناً يبدون، إلى جانب احترامهم لي على ذلك، تعجباً.. إلى أن أصبح الأمر بالإصرار عادياً.

عندما يعاتبني من أحبهم ويحبونني على زهدي ويقارنونني بمن لا أرضى أن أقرن بهم.. أؤكد لهم أني عندما ذهبت إلى النجف طلباً للعلم لم يكن ببالي ثروة ووظيفة. وهذا لا يعني أنني لا أحب المال، بل أحبه حباً جماً، لكني بحثت طويلاً عن طريق حلال لثروة تتسع للتوسعة والزيادة على الضروري وبعض الكمالي، فلم أجد... والدين كالثورة أو القضايا الكبرى، أو أن الثورة والقضايا الكبرى هي دين أصلاً وعمادها إذاً هو التقوى... ثم ألا يكفيكم؟ أقول لأولادي إنكم إذا جاء ذكري لم تنكسوا رؤوسكم، حتى لو كان من يذكرني من خصومي!!!

لقد كان جزء من دعاء الإمام زين العابدين أقرب من غيره إلى وجداني وقلبي نظراً إلى أنه يتصل بما يبتلى به أمثالي من مضايقات ومغريات، يقول عليه السلام: "اللهم صلِّ على محمد وآل محمد وصُن وجهي باليسار ولا تبتذل جاهي بالإقتار، فأستعطي شرار خلقك وأستشفع بك إلى غيرك، فأبتلى بمدح من أعطاني وذم من منعني وأنت من ورائهم جميعاً وليّ الإعطاء والمنع."

عدنا من طهران إلى بيروت عن طريق دمشق وما زلنا نذهب إليها ونعود منها عبر طريق دمشق، وخصوصاً بعدما اكتشفنا طول وصعوبة ووعورة التفافات ومنعطفات ومطبات الطرق الأُخرى... والطريق إلى طهران عبر دمشق تمر بسماء العراق، وإذا ما كان الوضع العراقي مانعاً، منذ مغامرة أو مقامرة العراق في الكويت، فإن الطائرة التي تتنكب سماء العراق تحاذيها، وعندما تدخل في المثلث التركي – الإيراني – العراقي تستطيع أن تفتح مخيالك على العراق وتمد يدك من نافذة الطائرة فتلمس بأناملك أو أشفار عينيك أو شغاف قلبك رذاذاً عراقياً، وتحمل الغيمة سلاماً إلى خيمة على الفرات، في الطف، أو في ظهر الكوفة، حيث يعسوب الدين وقائد الغر المحجلين، علي، ينتظرك على مفرق العدل والوحدة والتوحيد والعلم والفصاحة ونهج البلاغة.. ويغريك لون الرطب فتثبت في صدرك نخلة سعفها تظلل مشحوفاً يمخر شط العرب، وجذورها تمسك ضفة دجلة عن الانهيار.. وتصبر.. تشتاق وتصبر.. وتذهب إلى طوس، إلى مشهد، تسلم على الرضا وترسل معه سلاماً إلى الحسين.

بعد عودتي كتبت أدباً سياسياً عن الرحلة نشر على ثلاث حلقات في جريدة

"السفير"، تحت عنوان: "ذاهب إلى طهران، خذني معك إلى القدس". ما زلت على ذلك، لكني غير مستعجل، وتحرير الجنوب كان دليلاً على أن الأحلام يمكن أن تصبح توقعاً وواقعاً، وليس قَدَر الحلم العربي أن يتحول دائماً إلى كابوس.

وشرعت في تجميع الوثائق والصور لأعد كتاباً عن الرحلة وما سبقها أرخت فيها للثورة وعلاقاتها العربية واللبنانية والفلسطينية، ونقلت انطباعاتي عن طهران وشعارها العظيم "إمروز إيران فردا فلسطين" (اليوم إيران وغداً فلسطين)... وهتافها "إسرائيل نابودست فلسطين بيروزست" (إسرائيل زائلة فلسطين منتصرة)، وفصلت كثيراً في المشهد الذي رأيناه حولنا في مشهد الإمام الرضا في مدينة مشهد، وفي مدينة الأهواز، حيث اجتمع الجميع، فرساً وعرباً، يتنسمون رائحة فلسطين، ويعقدون العزم على التحرير... وكانت صور عبد الناصر تلوح بين الأيدي وفوق الرؤوس المحتشدة، مجلواً عنها الغبار العتيق الذي تراكم عليها طوال فترة تخزينها في عهد الشاه، لأن جمال عبد الناصر كان جرماً يعاقب عليه نظام الشاه، فكان ذلك أدعى إلى تعلق الشعب الإيراني بجمال ومصر وفلسطين وأبي عمار.. سألني كم عدد المجتمعين في صحن الإمام الرضا (ع) في مشهد يستمعون إلى خطابه؟ قلت: مئتي ألف، قال: أنت شاعر لا تعرف الأعداد. هؤلاء نصف مليون.. كانت إذاعة مشهد قد أذاعت ليلاً أن ياسر عرفات غادر مشهد وسيستمعون إلى خطابه المسجل غداً من الإذاعة، ومع ذلك كان الذين حضروا بهذه الكثرة الكاثرة، جلسوا من الصباح على بساط من الثلج تحت النفناف الأبيض الغزير حتى الظهر.. تماماً كما اجتمعوا حول عرفات عندما حوصر. وكما انهمروا – الفلسطينيون – على المقاطعة بعد وفاته.. وكما كان مقدراً لعدد من العواصم العربية أن تغص بأهلها المودعين لأبي عمار لولا أنهم منعوا.. وفي الأهواز لم تحضرني إلاّ تعليمة خبير سألته عن حركة الكهرباء في الأماكن البعيدة فقال لي إن الضوء هو ذبذبات تراها من قريب متصلة وتراها من بعيد شبه منفصلة، ومن الاتصال والانفصال يأتي الضوء والرؤية.. كانت حركة الأيدي في استاد الأهواز تضيء كأنها كهرباء في كربلاء، أو رام الله.. وأبو عمار في الوصل والفصل، في الموت والحياة، تيار كهربائي لا ينقطع إلاّ إذا كفت الزيتونة المباركة في القدس عن إنتاج الزيت الذي يضيء ولو لم تمسسه نار.■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf